الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزراة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة 08 ماي 1945 قالمة

كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب عربي

الأستاذة: إيمان حراث

المستوى: سنة ثالثة ليسانس

تخصص: دراسات أدبية

الأفواج: (ف1+ف2+ف3)

المحاضرة الأولى:

الثورة الجزائرية في الشعر العربي الحديث والمعاصر

تمهيد:

استطاعت الثورة الجزائرية أن تترك بصماتها على البشرية، فقد شكلت زخما نضاليا وثوريا كبيرين للأمة العربية في مواجهة أعدائها، كما تمكنت من التصدي لجميع أنواع الذل والقهر الممارس عليها من قبل الاستعمار بمختلف مخططاته، مؤكدة بذلك أنّ ما أخذ بالقوة لا يسترجع إلّا بالقوة، فهي ثورة ذات طابع إسلامي، ما جعلها ملهمة لقرائح الشعراء في مختلف بلاد الوطن العربي، فكتبوا عنها وعن بطولات مجاهديها وثوارها مع اختلاف واضح في الأدوات واللغة المستعملة.

أولا: الثورة الجزائرية والشعر

عندما تجتمع الثورة الجزائرية مع الشعر تتحقق لنا متعة الفن من جهة، ومتعة الموضوع من جهة أخرى وذلك لما لها من أثر كبير وفعّال في النفوس، فكلاهما يعصر نفسه ليحيا الآخر ويستمر.

لم يحد شعر الثورة عن الثورة تماما مثلما لم يحد شعر المعارك قديما عن المعارك، فقد كان أبو تمام يحضر معارك المعتصم ليصف حربه ضد الروم ويصورها، لتكون خالدة عبر التاريخ، فكذلك فعل مفدي زكرياء وغيره مع الثورة الجزائرية، فقد خصص هذا الشاعر أغلب شعره لتخليد أمجاد الثورة، والفخر برجالها، ما جعل اسمه رمزا من رموز الثورة الجزائرية، وشعره متميزا بحسن الصياغة وسلاسة العبارة وجمالية الايقاع فكان خير من تدفقت عبارات الفخر على لسانه، فنجده يقول:

نسب بدنيا العُرب ... زكَّى غرسَــه ... ألم .. فأورق دوحُه وتفـــــــــرَّعَ
سبب، بأوتار القلوب. عروقُـــــهُ ... إن رنّ هذا .. رنّ ذاك ورجَّعَـــــا
إمّا تنهَّدا بالجزائر مُوجَـــــــــع ... آسى«الشامُ» جراحَه، وتوجَّعَـــــا!
واهتزَّ في أرض " الكنَانة " خافق ... وأقضَّ فيأرض (العراق) المضجَعَا!
وارتجَّفي الخضراء شعب ماجـــد ... لم تثنه أرزاؤه أن يَفْـــزَعَـــــا
وهوتْ «مُراكشُ» حوله وتألَّمـــتْ ... «لبنانُ» واستعدى جديس وتُبَّعَـــا
تلك العروبةُ .. إن تثرْ أعصابُهـــا ... وهن الزمانُ حيالَها، وتضعضعـــا[1]

[1] مفدي زكرياء، ديوان اللهب المقدس، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية (موفم للنشر)، الجزائر، 2000 م ط 2، ص 53 .

وعلى الرغم مما تفرضه الثورات العظيمة على الشاعر من حماسة في نقل مجرياتها، فقد يصاب الشاعر أحيانا بدهشة تكون سببا في وقوفه حائرا متأملا، دون أن يقوى على تحريك قلمه المبدع، وهو الحال عند شعراء الثورة الجزائرية الّتي أذهلت العالم ببطولات ثوارها ومجاهديها، وجعلت من الجزائر بلاد عز وكرامة لا تخضع لأي كان ولا تستجيب لأية متغيرات.

فصمت بعض الشعراء أمام عظمة ثورتهم لم يكن من قبيل التخاذل أو الخيانة، بل العكس هو الصحيح؛ إنّه صمت المعجب والمعظم للحدث، فكأن ما يحدث على أرض المعارك لا يحتاج أصلا إلى من يعبر عنه نتيجة لكونه جللا؛ مثلما حدث مع الشعراء تجاه القرآن الكريم أثناء نزوله، ففي الوقت الذي ارتفعت فيه أصوات شعراء قريش تستهزئ بالرسول وقرآنه في تجبر وتكبر، نجد شعراء آخرين ممن صفت نفوسهم من الحقد والتحدي حيث أخرصهم القرآن بما أتى به من بديع التصوير وجمال البيان وقوة الحجة، فكأنّما يقولون لقرائهم ورواتهم: ليس بعد هذا الكلام كلام؛ ولا نريد بمثال القرآن هذا المطابقة بقدر ما نريد إثبات أنّ قوة الحدث موجبة أحيانا للصمت عن التعبير عنه، أو بيان أولوية السكوت على الكلام القاصر عن بيان حقيقة ما يجري، فكأن الكلمات المترجمة له أصغر من أن تتحمل ثقل المعنى وهو ما عبر عنه الشاعر السوري سليمان العيسى في قوله:

روعة الجرح فوق ما يحمل اللفـــــــظ ويقوى عليه إعصار شاعر

ما عساني أقول والنار لم تلـــــــــــفح جبيني هـــناك والثأر دائر[2]

نلحظ أنّ الشاعر أبدع في نقل أحاسيسه اتجاه الثورة الجزائرية بأصالته وحبه لها، فهنا تكبر الثورة بعظمتها وجلالها فيعجز الشاعر عن إدراك معانيه فهي فوق المدح والثناء، وهي أعظم من أن ترتفع إليها أصوات الشعراء بالشعر، فالقوافي بما تكسبه من جمالية إيقاعية أقل من الثورة. لذا كان للصمت الوجه الآخر المعجب والساكت.

فالصمت الحقيقي عن إنتاج النص الشعري تجسد عند الشاعر القدير محمد العيد آل خليفة،والّذي لم يتضمن ديوانه الضخم غير قصيدتين يعود تاريخهما إلى عهد الثورة، وهو الشاعر الّذي كان ينفخ الثورة في الثلاثينيات بقصيدة في كلّ مطلع شهر، كما سكت أحمد سحنون الّذي كان يتلمس وهج الثورة بأطراف

[2] سليمان العيسى، ديوان الجزائر (1954- 1984)، دار أطفالنا للنشر والتوزيع، دويرة، الجزائر، ط 1، 2010 م، ص 57

أصابعه، وسكت محمد الأخضر السائحي فلم يطلعنا بأول دواوينه إلّا بعد الاستقلال، والأمر ينطبق على آخرين مثل محمد الجريدي والهادي السنوسي وعمر شكيري وغيرهم.[3]

فلا نظن إذن أن سكوت بعض الشعراء عن الشعر هو خوف من المحتل، فقد قدموا أرواحهم فداء للوطن وعانوا الويلات في السجون الاستعمارية لمدة طويلة، وإنّما سكوتهم كان راجعا للاعتراف التام بأنّ الدور الآن هو لحملة السلاح لا غير.

ثانيا: الجوانب المتناولة في الثورة الجزائرية

كانت الثورة الجزائرية مصدر إلهام كلّ الشعوب العربية، فهي قضية كلّ إنسان محب لأرضه ملتزم بقضايا أمته، وبصرف النظر عن قيمة القصائد الّتي قيلت في الثورة الجزائرية من حيث الجودة الشعرية فإنّ الكم الهائل من الأشعار الموجهة إليها دليل كاف على أنّ العرب تفاعلوا معها تفاعلا ينم عن مؤازرة وإعجاب وتمن بالنجاح لكونها تمثل فخرا لكلّ العرب والمسلمين، فلا ريب إذا أن نجد الشعراء يدافعون عنها ويصفون أحداثها، حتى أصبحت عندهم مثالا حيّا للحرية والاستقلال والسيادة الوطنية، وهو ما نلمسه في قول الشاعر العراقي سعدي يوسف، فقد كتب متغنيا بانتصار الجزائر وشعبها، وهو في شوق لانتصار شعبه في العراق، فيقول في قصيدة " إليك ... أيتها الجزائر ":

هنا، ياصخرة سوداء، جئنا نغرز الراية
نغني عشبها الأخضر
ننادي نبعها الأبيض
نشم البرعم الأحمر
هنا، في الريح، في الأرض التي تزأر
وهبنا وجهها الأخضر
مراعي النجم والأنهار
وهبنا نبعها الأبيض
حنين الصمت والثوار[4]

[3] صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، الؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984 م، ص 224 .

[4] سعدي يوسف، الأعمال الشعرية، المكتبة المركزية، الجامعة الإسلامية، غزة، ص 315 .

في حين يمكن أن نخلص بمجموعة من الجوانب المتناولة في الثورة الجزائرية متمثلة في:

أ – الثورة بوصفها وقائع ومعارك:

وفي ذلك يقول الشاعر سليمان العيسى في أحد حوارته: « عندما قامت الثورة الجزائرية ثورة التحرير الكبرى كنا نتابعها يوما بيوم ومعركة بمعركة ونعد نفسنا من الثوار ... وإن لم نشترك في الثورة أو نكون في جبال الأوراس. كنا نحلم أن نكون في الجبال مع المقاتلين لكن لم يتح لنا أن نحمل السلاح فوجدنا أنّنا نستطيع أن نساهم في هذه الثورة بأن ننقل لعنة المنفى إلى أصلها .. إلى اللغة الأم، ففكرنا قليلا ووجدنا أنّ أحسن خدمة يمكن تقديمها لها أن نُطْلع الإخوة العرب على ما يقوم به إخواننا في الجزائر دفاعا عن الأرض والقضية والحرية »[5]

وفي السياق ذاته نجد الشاعر سليمان العيسى يسجل موقفا هاما إزاء الإحساس العارم بالثورة الجزائرية وافتخارا بأعمال شعبها وانتصاراتهم على الاستعمار، فيقول:

آلاف الأقدام الصلبة
موسيقا واعية عذبة
موسيقا تنسجها تربة
عجة بوميض الأحداق
بالحرقة بالدمع الباقي
يتشوق عبر الآفاق
ميلاد اليوم الموعود
بدء التاريخ الموؤود
ميلاد ينابيعي الثرة
ميلاد جزائري الحرة[6]

يريد العيسى أن يجعل من الثورة الجزائرية مثلا يقتدى به في ربوع البلاد العربية؛ لأنّ الاستعمار مهما طال فإنّ شمس الحرية والاستقلال مشرقة لا محالة، وثورة الجزائر المجيدة خير دليل على ذلك.

[5] سليمان العيسى، من حوار أجرته معه فتيحة بورويبة، جريدة الرياض اليومية، عدد 11869، 1421 هـ

[6] سليمان العيسى، ديوان الجزائر، مرجع سابق، ص 28

ب – الشهيد والمجاهد بوصفهما بطلين:

وفي سياق مدح العيسى لبطولة المرأة الجزائرية اختار المكافحة " جميلة بوحيرد " لتكون هذه السجينة رمزا للتصدي والمواجهة العربية للاستعمار فهي تختزن في رمزيتها سير البطولة العربية، فنجده يقول:

أين مني جميلة؟ تزار السا حات من صمتها بألف حداء
أي سر في الصمت يرسله الأبطال نارا، وصاعقات فداء!
عظمت صيحة الفداء، وعزت أن توارى في دامس الظلماء
هي فينا سحر القصيد إذا غنى، ووهج النارية البتراء
هي في غضبة الملايين تهوى فوق جلادها سياط ازدراء[7]

وبهذا فإنّ الشاعر يشيد ببطولة هذه المجاهدة المكافحة ضد الاستعمار في الجزائر رغم ما تعرضت له من أشكال مختلفة من التعذيب والإذلال، فكانت مثالا مهما للبطولة من أجل وطنها الجزائر، وليست جميلة بوحيرد البطلة الوحيدة الّتي خطفت الأضواء في تاريخ الثورة الجزائرية، حيث يكتب عبد الوهاب البياتي عن الشهيد " العربي بن مهيدي " حاملا صورة رأسه المدلى بعد إعدامه في سجنه، وقد ارتسم ظله على الجدار، بينما ترجع أصداؤه وهو يتلو القرآن بأعلى صوته فيقول في ذلك:

قمر أسود في نافذة السجن، وليل
وحمامات وقرآن وطفل
أخضر العينين يتلو
سورة النصر، وقل
من حقول النور، من أفق جديد
قطفته يد قديس شهيد
يد قديس وثائر
ولدتها في ليالي بعثها شمس الجزائر[8]

[7] سليمان العيسى، قصيدة جميلة بوحيرد، المجموعة الكاملة، مجلد 03، دار الشورى، بيروت، لبنان، ط 1، 1980 م،

[8] عبد الوهاب البياتي، الأعمال الشعرية الكاملة، مجلد01، دار الحرية، بغداد،العراق، ط 2، 2001 م، ص 172

ج – المكان بوصفه شاهدا على الثورة

حين كتب أحمد حجازي قصيدته " أوراس "، قدم لها بقوله: « إنّ أوراس في نظري ليست قصيدة قديمة، لقد منحها موضوعها فرصة الميلاد كلّ يوم، وأنّ كلّ ماهو بطولي في القصيدة يأتيها من الثورة وكلّ ماهو فج فيها مرده إلى جوانب في نفس لم تمتد إليها نار الثورة بعد »[9]، فالأوراس في شعره تعبر عن بلد كاملا يشتعل ثورة ويعمل تطهير الأرض وتخليصها من دنس المستعمر فنجده يقول:

مدن المغرب
ترتج على قمم الأوراس
زلزال في مدن المغرب
لم يهدأ منذ سنين مائة
لم يترك في جفن أملا في نعاس
يأتي المولود على صوت الزلزال
ويموت رجال
فيودعهم صوت الزلزال[10]

أمّا وهران فقد ألهمت بطولاتها الشاعر العراقي بدر شاكر السياب، الّذي كثيرا ما أشاد بالثورة على الظلم فهاهو يهتز لمّا يحدث في وهران من بعث للحياة بعد الموت والسكينة للاستعمار، فيقول في ذلك:

هذا مخاض الأرض لا تيأسي
بشراك يا أجداث حان النشور!
بشراك في (وهران) أصداء صور
سيزيف ألقى عنه عبء الدهور
واستقبل الشمس على (الأطلس)![11]

[9] نازك الملائكة، الديوان، دار العودة، بيروت، ط 2، 1979 م، ص 393 .

[10] أحمد عبد المعطي حجازي، قصيدة أوراس، دار اليقظة، دمشق، 1959 م

[11] بدر شاكر السياب، الديوان، ج 1، دار العودة، بيروت، 1971 م، ص 392 – 393

خاتمة:

حديثنا عن الثورة الجزائرية لا ينتهي ولن ينتهي؛ لأنّها ثورة الأبطال، فقد استطاعت أن تحقق حلم الشعب الجزائري ورفعت رأس الأمة العربية عاليا، فألهمت قرائح الشعراء بأجود القصائد والّتي تميزت بأعلى المهارات الفنية، فكانت خير معبر ومخلد عن الثورة الجزائرية المباركة باعتبارها جزءا لا يتجزّأ من كفاح الأمة العربية ككلّ، وهذا ما أكده تفاعل الشاعر العربي مع واقع الثورة بصورة متميزة محاولا بذلك رصد تفاصيلها ومعايشة وقائعها.